Journal of the College of Education for Humanities
University of Thi-Qar \ ISSN:2707-5672
مجلة كلية التربيـة للعلـوم الانسـانيـة
جامعة ذي قار / الرقم المعياري 2707-5672
https://doi.org/10.32792/utq/jedh/v15i2

تأثير الجغرافية في الإنسان الجاهلي

م.د فاطمة لامي عبد
fatima.lamei.abed@uos.edu.iq
جامعة سومر- كلية التربية الأساسية

الملخص

للبيئة الجغرافية دوراً بارزاً في بناء شخصية الفرد العربي بصورة عامة والإنسان الجاهلي بصورة خاصة، ولها قدرة التأثير في سلوكه وطبيعته وتكوينه ونمط حياته وطريقة تعامله مع محيطه، إذ يعد الإنسان ابن بيئته كيفما تكون يكون طبعه، وصفاته، وتأثير الجغرافية عليه واضح، ويكون التأثير على نوعين: إيجابي، وسلبي، الأول: يكون في الكرم والشجاعة، والمروءة، وحماية الجار، والفروسية، والغيرة، .....، وتأثيراً سلبياً يكمن في النرجسية، والانتهازية، والاندفاعية، والطيش، والهجومية، والعصبية القبلية، والخمر، ..... وهذه كلها صفات ولدت وتطورت بفعل البيئة وهيمنتها عليه، إذ منحته الخشونة من جهة والعاطفة واللين والرقة عند مواجهة الحبيبة، ونجد هذا واضحاً في اشعاره وانتاجه الأدبي، فكثر ما نجد الجاهلي يبكي الطلل، وفراق الأحبة، وغيرها من الأمور التي برز في شعره، وهذا ما سنتطرق إليه من خلال هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: الجغرافية، البيئة، العصر الجاهلي، الشخصية، الطلل.

Journal of the College of Education for Humanities
University of Thi-Qar \ ISSN:2707-5672

مجلة كلية التربيـة للعلـوم الانسـانيـة
جامعة ذي قار / الرقم المعياري 2707-5672

https://doi.org/10.32792/utq/jedh/v15i2

The impact of geography on pre-Islamic man

Fatima Lami Abdel
Fatima.lamei.abed@uos.edu.iq
Sumer University - College of Basic Education

Abstract:

The geographical environment plays a prominent role in shaping the personality of the Arab individual in general, and the pre-Islamic man in particular. It has the ability to influence his behavior, nature, constitution, lifestyle, and his way of interacting with his surroundings. It is said that a person is a product of his environment; his temperament, characteristics, and traits are molded by it, and the influence of geography on him is evident. This influence can be classified into two types: positive and negative. The positive aspects include generosity, courage, chivalry, protecting neighbors, horsemanship, and jealousy. Negative influences include narcissism, opportunism, impulsiveness, recklessness, aggression, tribalism, and alcohol consumption. All of these are traits that were born and developed under the influence of the environment, which endowed the individual with roughness on one hand, and emotional tenderness and softness when facing a lover on the other. This is clearly reflected in his poetry and literary output, where we often find the pre-Islamic man lamenting the ruins, the separation from loved ones, and other themes that were prominent in his poetry. This is the focus of the research to be addressed in this study.

Keywords: Geography, Environment, Pre-Islamic Era, Personality, Ruins.

المقدمة

إن الظروف الجغرافية لها الدور الأكبر في تاريخ البشر والأمم، وتشكيل الطبع البشري وشخصية الإنسان وقيمته، لأنها الكيان الذي يجري فيه التفاعل بين الانسان وبيئته، فهو الأساس الذي بنى شخصية الإنسان في عصور ما قبل الإسلام، فخلق فيه سلوكيات إيجابية وسلبية منها الكرم والشجاعة وأخرى سلبية كالتخلف والجهل والعنصرية، والعصبية فالمناخ الجغرافي شكل مزاج الفرد في العصر الجاهلي والطبيعة كانت المتحكم الأساسي في شخصيته واسلوبه بل حتى قراراته فهو دائم الشكوى من الأرض غير الخصبة، وقلة مقومات العيش ومرارة الترحال، وهذا النمط المناخي شكل نظام معيشي قاسي وجعل الحياة أكثر ثقلاً مما جعله يُضطر إلى التنقُّل من مكان إلى آخر بحثاً عن عنصري البقاء الأولين للإنسان (الماء والعشب)، إذ كان التنقل بسبب المياه يُخَلّف وراءه بعض البقايا يقال لها (أطلال) عندما يمر الشاعر بهذه الأماكن يسترجع ذكرياته مع إحدى نساء القبيلة، فتهيّج فيه عواطفه، ويأخذه الحنين، فيقف على الاطلال يبكي ويستبكي، فالارتحال المستمر لأهل البادية شكّلته ندرة المياه وظروف الجفاف نجده مضطر إلى التضحية بالديار والحب بسبب الوضع الاقتصادي(سقال، 1995).

ويقع تأثير الجغرافية على جميع نواحي الحياة (السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية) وسيقتصر البحث على بعض جوانب الحياة ومنها:

تأثير الجغرافية على الأماكن وفراق الأحبة:

كان ذكر الوديان في الشعر يأتي في كثير من الأحيان مقترناً بذكر الأحبة، والاهل، والاشتياق إلى ديارهم، واستذكار الذكريات الجميلة التي فرضتها الطبيعة الجغرافية عليهم بتحطيم هذه الأماكن(امرؤ القيس،د.ت). قال امرؤ القيس:

"أَلا عِم صَباحاً أَيُّها الطَلَلُ البالي وَهَل يَعِمَن مَن كانَ في العُصُر الخالي

وَهَل يَعِمَن إِلّا سَعيدٌ مُخَلَّدٌ قَليلُ الهُمومِ مـــا يَبيتُ بِأَوجالِ

وَهَل يَعِمَن مَن كانَ أَحدَثُ عَهدِهِ ثَلاثينَ شَهراً في ثَلاثَةِ أَحوالِ

دِيارٌ لِسَلمى عافِياتٌ بِذي خالٍ أَلَحَّ عَلَيها كُلُّ أَسحَمَ هَطّالِ

وَتَحسِبُ سَلمى لا تَزالُ تَرى طَلّاً مِنَ الوَحشِ أَو بَيضاءَ بِمَيثاءِ مِحلالِ

وَتَحسِبُ سَلمى لا تَزالُ كَعَهدِنا بِوادي الخُزامى أَو عَلى رَسِ أَوعالِ"(الديوان، د.ت)

الشعر الجاهلي مرآة انعكست فيها مظاهر الحياة العربية الجاهلية، ومثلها الشاعر الجاهلي بقوالب شعرية جميلة، إذ مثل البيئة خير تمثيل، مُتناولاً كل الجوانب، فقد صور ما فيها من جبال، وطرق ممتدة ومرابع خضر، ووصف الاثار، والدمن، والسحب، والامطار، والسيول، والدمار، وتحدث الشاعر الجاهلي عن منازل الأحبة، والديار، وكيف ارتحل أهلها عنها، ووصف قوافلهم، وهوادج نسائهم، كما وصف ما خلفه أهلها بعد الرحيل من الحجار، والنوى، والاثافي، ووصف بؤسه وشقاءه وما ينزل

به من قحط وصور لنا لفح الحر ولهيب السموم فكان الشعر الجاهلي صورة ناطقة عن أثر الجغرافية، وبما يحس به وما ينتابه من قلق اتجاه مصيره المجهول(الجبوري، 1986).

في الطبيعة بصورة عامة يشكل المياه شريان الحياة والمصدر الأساسي للعيش وخصوصا في بيئة صحراوية تتسم الجفاف حيث فرضت عليه قوانينها وجعلته اسيراً لها إذ فرقت بين الأهل والأحبة بسبب شحة المياه أي ان "صلة الإنسان بالطبيعة بوصفها قهراً يمارس على الروح غير الجفاف والقحط وشحّ المياه وموارد المعيشة"(اليوسف، 1983). كانت ارضهم نادرة المياه حتى وأن توفرت بعض الآبار تكون في اجزاء متباعدة منها، لهذا ظهر فيها التحول الاجتماعي الشامل في حياة السكان فغلب عليهم طابع البداوة، فهم قبائل رحل يسعون وراء الكلأ ويطلبون الماء الذي يعتبر اساس الحياة، فقد كان العرب سابقاً ينظرون إلى المياه نظرة تقديس؛ ومورد الخصب والنماء، والبركة والخير، وقدسوا مواطن الماء القديمة، فكانوا ينشدون الأراجيز في اثناء حفر الآبار(القيسي، 1970). قال أحد الشعراء عندما حفر قُصي بن كلاب بئراً سماها العجوُل:

"نَرْوَى عَلى العَجُولِ ثُمَّ نَنطِلِقْ قَبْلَ صدُورِ الحَاجّ مِنْ كُلّ أفُقْ

إنَّ قُصيًّا قد وَفَى وَقَدْ صَـــدَقْ بالشَّبعِ للنَّاسِ وَريّ مُغْتَبَـــقْ"(جابر،1932)

تعد الطبيعة الصحراوية الصورة المؤلمة للمكان في حياة الفرد الجاهلي، وجفافها القاتل، ومناظرها المحدودة، ومناخها الفتاك، جعلت الإنسان يمارس نظام محدد في حياته يمكنه من البقاء والاستمرار في وجه الصعوبات إذ اتجه الإنسان في تلك البيئة الصحراوية القاحلة التي فرضت قسوتها وخشونتها عليه إذ تعد اشد العوامل قهراً، فجعلته في حالة البحث الدائم على حلم الاستقرار الذي حالت دونه الطبيعة الصحراوية والعوامل الجغرافية بمناخها الجاف، وشحة الموارد المائية التي تتمثل في الخراب، والدمار والترحل الدائم وعدم الاستقرار المكاني، إذ تجمعت كل الظروف في وجه استقراره المكاني والروحي(سقال، 1995) .

تعد الصحراء هي المكان الخارجي المتغير والملجأ، فيشكل أهمية للشاعر الجاهلي، إذ يصب حسرته حين يرى الأشياء تنهدم وتغيب إلى الزوال، ويعد المكان في القصيدة الجاهلية لغة ثابتة خفية في تضاعيف القصيدة (سعيد، 1979) .

انمازت حياة البدوي في الصحراء باختلافها عن حياة الحضر، إذ لم يستقروا في مكان، بل عاشوا متنقلين من مكان إلى اخر في الصحراء واعتادوا على حياة الترحل وعدم الاستقرار، وشظف العيش(سقال، 1995). وهناك أدوات خارقة أسهمت في التشتت المكاني عند الإنسان أهمها الرياح، التي قلبت الحياة الإنسانية إلى دمار، وموت. تحدث الشعراء عن الخراب المكاني ومنهم بشامة بن الغدير المري يصف الديار قائلا:

"لِمَنِ الدِيارُ عَفَونَ بِالجَـــــزعِ بِالدَّومِ بَينَ بُحارَ فَالثِّـــرعِ

دَرَسَت وَقَد بَقِيَت عَلى حِجَـــــجٍ بَعدَ الأَنيسِ عَفَونَها, سَبـــعِ

إلّا بَقايا خَيمَةٍ دَرَسَـــــــــــت دارَت قَواعِدُها عَلى الرَّبــعِ

فَوَقَفتُ في دارِ الجَميعِ وَقَـــــد جالَت شُؤونُ الرَّأسِ بِالدَمــعِ

كَعروضِ فَيَّاضٍ عَلى فَلَـــــجٍ تَجري جَداوِلُهُ عَلى الـــــزَّرعِ

فَوَقَفتُ فيها كَي أُسائِلَــهـــــا غَوجِ اللَبانِ كَمِطرَقِ النَّبـــــعِ

أُنضي الرِّكابَ عَلى مَكارِهِــها بِزَفيفِ بَينَ المَشيِ وَالوَضــعِ

بِزَفيفِ نَقنَقَـــــةٍ مُصَلَّمَـــــةٍ قَرعاءَ بَينَ نَقانِقٍ قُـــــــــرعِ"(الكوفي، 1964)

يستفتح الشاعر قصيدته بالسؤال عن الديار التي أصبحت خراب بعد ما كانت عامرة بالأهل والأحبة تزهو بالحياة انتابها الخراب بفعل الزمن وما طرأ عليها من الاندثار وتحول المكان الذي كان في يوم من الأيام يزهر بالسمر واللعب، وإذا به يتحول إلى ماضٍ مؤلم بانقلاب الحياة الإنسانيّة في صورة الطلل بفعل العوامل الجغرافية التي فتكت بالمكان، واوقعت الإنسان الذي وقف عاجزاً أمام البقايا والدمار وخلوها من الإنسان، ولم يبقى سوى بقايا خيمة واحدة من المكان الذي انمحى آثاره.

يعد الأثر الذي يتركه الإنسان خلفه انتصار للطل على الإنسان وذكرياته الجميلة إذ يكشف تحول الجهد الذي بذله الإنسان إلى لا شيء، وضياع، ورماد تذروه الرياح. استرجع الشاعر ذكرياته الجميلة بهذا المكان ممزوجة بالدموع ويشبه الدمع بقوله: (جالت شؤون الرَّأس بالدمع كعروض فيَّاض على فلج) شبهه بالماء الذي يجري بكثرة على النهر الكبير الذي يبتلع الماء، وبعدها وقف للسؤال ولكن أين وقف؟ وقف في المكان الذي كان يجتمعون به سابقاً، المكان الذي اندثر إذ أن "أولى الممكنات الإبداعية التي يضمرها صوت النص الشعري تتمظهر بالمعرفة التي تحفظ ذاكرة الإنسان من النسيان. وهذه المعرفة رد مناوئ على شمولية العفاء، .... والشاعر يحفظ حدود المكان الذي يعشقه وينتمي إليه ويعرفه أيضاً الديار، الجزع، والدوم، وبحار، والشرع"(علميات، 2004) .

كما نلحظ أن القصيدة تنتهي بحرف العين المكسور وهي قافية تدل على الحزن الشديد والانكسار الذي صب في قلب الجاهلي وحرقته على التجمع الذي أمضى وتبخر بفعل البيئة إذ يقول ابن رشيق في كتابه العمدة: " كانوا قديماً أصحاب خيام: يتنقلون من موضع إلى آخر؛ فلذلك أول ما تبدأ أشعارهم بذكر للديار، فتلك ديارهم، وليست كأبنية الحاضرة، فلا معنى لذكر الحضري الديار، إلا مجازاً؛ لأن الحاضرة لا تسفعها الرياح، ولا يمحوها المطر، إلا أن يكون ذلك بعد زمان طويل لا يمكن أن يعيشه أحد من أهل الجبل"(القيرواني، 1980) . ونجد البكاء على الديار لدى كثير من الشعراء في العصر الجاهلي بسبب بيئتهم وطبيعة الحياة في عصرهم، إذ كانت حياتهم قائمة على الارتحال، فيقيمون حيث يحلون خيامهم، وينصبون أثافيهم، ويوقدون نيرانهم، ويجتمع فتياتهم بفتيانهم، فتنشأ صلات حب وود، وبعد انتهاء الموسم، وجف الزرع، يعودون إلى الأوطان، يستذكرون الساعات السعيدة، والأماكن، والملاعب، ويبكون الأطلال(قناوي، 1949). قال امرؤ القيس:

"قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنــزِلِ بِسِقطِ اللِوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَلِ

فَتوضِحَ فَالمِقراةِ لَم يَعفُ رَسمُهـــا لِما نَسَجَتها مِن جَنوبٍ وَشَمـــأَلِ

تَرى بَعَرَ الآرامِ في عَرَصاتِـهـــــا وَقيعانِها كَأَنَّهُ حَـــــــبُّ فُلفُـــلِ

كَأَنّي غَداةَ البَينِ يَومَ تَحَمَّلـــــوا لَدى سَمُراتِ الحَيِّ ناقِفُ حَنظَـــلِ

وُقوفاً بِها صَحبي عَلَيَّ مَطِيَّهُـــم يَقولونَ لا تَهلِك أَسىً وَتَجَمَّـــــلِ

وَإِنَّ شِفائي عَبرَةٌ مَهَراقَـــــــةٌ فَهَل عِندَ رَسمٍ دارِسٍ مِن مُعَـــوَّلِ

كَدَأبِكَ مِن أُمِّ الحُوَيرِثِ قَبلَـهـــا وَجارَتِها أُمِّ الرَبابِ بِمَأسَـــــــــلِ

فَفاضَت دُموعُ العَينِ مِنّي صَبابَةً عَلى النَحرِ حَتّى بَلَّ دَمعِيَ مِحمَلـــي"(الديوان، د.ت)

يختلف الوقوف هنا عما كان عليه عند بشامة بن الغدير، الوقوف هنا للبكاء على الديار التي خلت من أهلها وليس كما هو عند بشامة بن الغدير الذي وقف على الديار بالسؤال عن اهلها إذ يستفتح قصيدته بالبكاء على الذكريات ويطلب من صاحبيه بالوقوف معه، لعل هذا البكاء يخفف من أحزانه بسبب الديار التي لم تندثر آثارها، بل ظلت ماثلة شاخصة تُقاوم عواصف الدهر، ولحسنِ حظها كانت الرياح الشمالية والجنوبية في صفها تمر عليها فتسفر عنها وتتجدد معالمها المندثرة، لكن هذه المعالم كانت مروعة وقاسية للشاعر؛ لأنها خلت من الأحبة واتخذتها الوحوش مرتعاً وأصبح يسودها الحزن، ويعود ببصره إلى الوراء فيسترجع ساعات الرحيل المؤلمة فتفيض دموعه الحارة التي يشببها بالشخص المستخرج الحنظل فكلاهما يذرفان الدمع الحار، التي يجعل الدموع تذرف بشدة وهو غارق ببحر الذكريات الحزينة(عطوان، 1970) .

إن ديار المحبوبة لم تدرس كلها وإنما بقيت آثار دالة على وجودها في إطار المكان، لكن صورة الآثار تُزيد من معاناة الشاعر، ومأساته، لأنه يتذكر حياة إنسانية كانت موجودة، وتحولت في لحظة إلى خراب أي من حد الاكتمال إلى حدّ النقص المُحزن ولو نرسم هذه الابيات على لوحة سنصورها عبارة عن بقايا من الدمار والماسات لوحة يملوها الانهيار الحسي والمعنوي.

عاش الجاهلي حياة قاسية جداً متنقلة ليس له مستقر وإنما في ترحل دائم تتبعهم مساقط الغيث جعلهم متنقلين في الصحراء كأنهم قطع شطرنج تاركين غير ثابتين في مكان معين، وفي كل مكان يتركون فلذة من أكبادهم، يكابدون ألم الفراق فراق الأهل والحبيب وحبيبته فأصبح سبيلهم الوحيد في ذكرياتهم هو البكاء على الأطلال والوقوف عليها فهو يبكي من حيث لا يشعر(الكفراوي، د.ت) فـ"الأطلال وطنهم الذي وهبهم الحياة، وصد عنهم عادية الفناء ردحا من الزمان فلن ينسوه على مدى الحياة"(شبلي، 1982) . يستذكر عبيد بن الابرص ديار حبيبته قائلاً:

"يا دارَ هِندٍ عَفاها كُـــلُّ هَطّـــــالِ بِالجَوِّ مِثلَ سَحيقِ اليُمنَةِ البالـــي

جَرَت عَلَيها رِياحُ الصَيفِ فَاطَّـرَدَت وَالريحُ فيها تُعَفّيها بِأَذيـــــــالِ

حَبَستُ فيها صِحابي كَي أُسائِلَـهـا وَالدَمعُ قَد بَلَّ مِنّي جَيبَ سِربالـي

شَوقاً إِلى الحَيِّ أَيّامَ الجَميعُ بِـهـا وَكَيفَ يَطرَبُ أَو يَشتاقُ أَمثالـــي

وَقَد عَلا لِمَّتي شَيـــبٌ فَوَدَّعَنـــي مِنها الغَواني وَداعَ الصارِمِ القالي

وَقَد أُسَلّي هُمومي حينَ تَحضُرُنـي بِجَسرَةٍ كَعَلاةِ القَينِ شِمـــــــلالِ"(الديوان،1994)

يُقدم الشاعر رؤية شمولية غير قاصرة، بل يتعمد هذه الشمولية لمنظر المكان المخصص لديار محبوبته؛ لكي يشفي صدره من العبرات وهو يتحدث عن مكانها، وجسدت الرؤية جهد ذهني، وإعمال لجميع حواس الشاعر في نقل الصورة المكانية المؤلمة، ويأتي إحساس الشاعر برهبة الرؤية من الموقف الشعوري الآني في فضاء المكان، ومن مواجهته للحقيقة الساطعة التي فرضتها الهجرة القسرية لمحبوبته تاركه خلفها معشوقها الي جمعتها به أجمل الذكريات. يستذكر الشاعر حبيبته (هند) إذ يستفتح القصيدة ب(ياء النداء) ولكن النداء هنا ليس للحبيبة وإنما للديار المندثرة التي اختفى من كان يسكنها؛ بسبب الامطار الغزيرة انمحت آثارها وجعلت المكان خال من الأحبة محتها الرياح، لكن لم تمحي الذكريات المتوغلة في نفس الحبيب، الديار يستطيع أي شيء أن يمحيها لكن الحب المطبوع في القلب لا تستطيع الرياح ولا غيرها أن تمحه من القلب، فالاندثار كان مادياً لكن الأثر المعنوي موجود في صميم قلب الشاعر، وبعد هذا الدمار وقف الحبيب لكي يسأل الديار موجه السؤال هنا للجماد، ولكن الذكريات والحب يحول هذا الجماد لكتله من الألم وتبدأ الدموع تنهمر حتى بللت رداءه بسبب الشوق والحنين. يعد البكاء على الأطلال وذكريات الحبيبة من أهم الموضوعات التي ترد عند الشاعر الجاهلي ليست مجرد اماكن انمحت، وانتهت، إنما هناك علاقة وثيقة جداً بينها وبين نفس الشاعر من أشد المظاهر تأثيراً في الحس والنفس إذ تتغلغل آثارها في النفس وتحرك الخواطر وتنهمر الدموع(القيسي،1970).

تأثير الجغرافية على انتاجه الأدبي:

كما أثرت الجغرافية على الانتاج الفني له من خلال الألفاظ والمعاني المحدودة المُستعملة في الشعر الألفاظ التي رسمتها البيئة الصحراوية. إذ تعد البيئة من أهم العوامل المؤثرة في الانتاج الأدبيّ، بل الخالقة، والمكونة لأكثر عناصره، تخلع عليه جميع ألوانها، وتهب له كل مظاهرها، فهم يلجئون إليها ومعهم مشاعر الحزن، والخوف، أو الرجاء فيزاوجون بين أنفسهم والطبيعة فينتج شعر يشاكل هذه النفوس ويلائم ما تمر به من رضا أو سخط، أو من ضيق، فالإنسان ابن بيئته، واسير عاطفته تسبط الطبيعة عليه ظلها، وتنشر فوقه لواءها، وتتحكم فيه فيثور ويفور، أو يسكن ويهدأ، وينبسط وينشرح، أو ينكمش وينقبض البيئة تتحكم في الإنسان وإنتاج الشاعر (قناوي،1949، شبلي، 1982) .

الصحراء ومعالمها، والقحط، والجدب فرضت على الجاهلي انتاج شعري محدد إذ اقتصر الوصف على (الناقة، الفرس، الثور الوحشي، الطيور الجارحة، الاثافي، القمر، الشمس،....) نجد امرؤ القيس يصف فرسه قائلا:

"وَقَد أَغتَدي وَالطَّيرُ في وُكُناتِهـا بِمُنجَرِدٍ قَيدِ الأَوابِدِ هَيكَـــــــــلِ

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُدبِرٍ مَعـــــــــاً كَجُلمودِ صَخرٍ حَطَّهُ السَيلُ مِن عَلِ

كُمَيتٍ يَزِلُّ اللِبدُ عَن حالِ مَتنِـــهِ كَما زَلَّتِ الصَفواءُ بِالمُتَنَـــــــــزَّلِ

مِسَحٍّ إِذا ما السابِحاتُ عَلى الوَنى أَثَرنَ غُباراً بِالكَديدِ المُرَكَّـــــــــلِ

عَلى العَقبِ جَيّاشٍ كَأَنَّ اِهتِزامَـــهُ إِذا جاشَ فيهِ حَميُهُ غَليُ مِرجَـــلِ

يَطيرُ الغُلامَ الخِفُّ عَن صَهَواتِـــهِ وَيَلوي بِأَثوابِ العَنيفِ المُثَقَّـــــلِ

دَريرٍ كَخُذروفِ الوَليدِ أَمَـــــرَّهُ تَقَلُّبُ كَفَّيهِ بِخَيطٍ مُوَصَّـــــــــــلِ

لَهُ أَيطَلا ظَبيٍ وَساقا نَعامَـــــةٍ وَإِرخاءُ سِرحانٍ وَتَقريبُ تَتفُـــــلِ

كَأَنَّ عَلى الكَتفَينِ مِنهُ إِذا اِنتَحـى مَداكُ عَروسٍ أَو صَلايَةُ حَنظَـــــلِ"(الديوان، د.ت)

وصف فرسه بالسرعة المطلقة (مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً) وصف ناتج من البيئة الصحراوية، وحياتهم القائمة على السرعة، وعدم الاستقرار، الشاعر عندم يصف لا يقدم لنا الوصف ساكناً، ولا يعرض معانيه بصورة جامدة بحيث تملها النفس، ويعافها الوجدان، بل أشاع بها الحركة، والنشاط مُتأثر بطبيعة حياته، لا يعرف الاستقرار، إنه على رحيل مستمر وراء الغيث، متنقل في مساقط الكلأ، وفي وقت الحرب نجد الجاهلي يغير أو يغار عليه فيتحرك بسرعة خاطفة، ونشاط وعلى هذا النحو وصف الشاعر الفرس بـ (المكر المفر المقبل المدبر) لوحة وصف الفرس مملوءة بالحركة تشبه حياته، (شبلي،1982) .

اما وصف الناقة نجدها عند طرفة بن العبد في (28 بيتاً) يصف الناقة وصفاً دقيقاً مركزاً، لا يترك جزءاً فيها من غير ذكر وكأنما يرسم لوحة أو يعمل اختبار لجميع تفاصيلها، ويدل هذا الوصف الدقيق للناقة على أنها جزء من حياة العربي في الصحراء، بل المكمل لها، وتعد أبرز الحيوانات المذكورة في الشعر الجاهلي؛ لأنها مصدر الخير والرزق، ورفيقة السفر، تقطع الصحراء دون كلل أو ملل، قوية صلبة قبل السفر، ونحيلة مهزولة بعد أن قطعت الفيافي، وجابت الفلوات في حر الصحراء وبرد الشتاء(الجبوري، 1986) قال لبيد بن ربيعة في وصف البقرة الوحشية:

"أَفَتِلكَ أَم وَحشِيَّةٌ مَسبوعَـــــةٌ خَذَلَت وَهادِيَةُ الصِوارِ قِوامُهـا

خَنساءُ ضَيَّعَتِ الفَريرَ فَلَم يَـرِم عُرضَ الشَقائِقِ طَوفُها وَبُغامُهـا

لِمُعَفَّرٍ قَهدٍ تَنازَعَ شِلـــــــــوَهُ غُبسٌ كَواسِبُ لا يُمَنُّ طَعامُهـــا

صادَفنَ مِنها غِرَّةً فَأَصَبنَهـــــا إِنَّ المَنايا لا تَطيشُ سِهامُـــهـــا

باتَت وَأَسبَلَ واكِفٌ مِن ديمَـــــةٍ يُروي الخَمائِلَ دائِماً تَسجامُهـــا"(الديوان، د.ت)

الشعراء على مختلف العصور يستعملون الأدوات الموجودة في بيئتهم، والشاعر في العصر القديم ادخل الصحراء والمطر والاثافي، والخيمة، والحيوانات الموجودة في بيئتهم المحدودة الأفق في شعرهم. نجد المرقش الأكبر يصف الصحراء قائلا:

"ودَوِّيَّةٍ غَبْراءَ قد طالَ عَهْدُها تَهالَكُ فيها الوِرْدُ والمَرْءُ ناعِسُ

قَطَعْتُ إلى مَعْرُوفها مُنْكَراتِهـــا بِعَيْهامَةٍ تَنْسَلُّ واللَّيْلُ دامِـــسُ

ترَكْتُ بها لَيْلاً طَويلاً ومَنْـــزِلاً ومُوقَدَ نارٍ لَم تَرُمْهُ القَـــوابِسُ

وتَسمعُ تَرْقاءً منَ اليوم حَوَلنا كما ضُربت بعدَ الهُدُوءِ النَّواقِسُ

فيُصبحُ مُلقى رَحِلها حيثُ عَرَّست من الارضِ قد دَّبت عليهِ الرَّوامِسُ

وتُصِبحُ كالذَّوادةِ ناطَ زِمامَهـــا إلى شُعَب فيها الجَواري العَوانس"(الديوان،1998)

صحراء لا يوجد فيه نباتات ولا ماء، قد اسود لونها، والليل دامس الظلام فيها تتهالك فيها الأبل انهكته في البحث المستمر عن لقمة العيش والراحة التي عجز وهو يبحث وجودها. فالطبيعة الساكنة، والمتحركة اثرت في شخصيته واسلوبه ونمط حياته من خلال استعمال الألفاظ والمعاني المناسبة لبيئتهم (سقال، 1995).

تأثير الجغرافية على شخصية الجاهلي:

لم يقتصر تأثير البيئة على الفن، وفراق الاحبة؛ بل أثرت على الشخصية بكل تفاصيلها إذ لا يمكن الفصل بين الطبيعة والنفسية العربية، إذ نشأ وترعرع بها وتأثر فيها، فالجغرافية رغم اهتمامها قبل كل شيء بالتضاريس الأرضية، لم تتمكن من إهمال السكان وطبيعتهم النفسية، وبما يحسون به، وانطلاقاً من البيئة وقساوتها نفهم قساوة نفسية العربي ورغبتها في البقاء بعيدة عن التغير، وخشونته، ومرد طبائعه إلى العلوق بالأرض، وخوفه من المجهول الذي كان يشكل خوفاً كبيراً في حياته وجعله في تفكير مستمر بهذا الكائن الغريب؛ لأن الموت يترصده في كل مكان وفي كل لحظة، فيفسد عليه حياته، أشبه بالكابوس، فبدأ الجاهلي يبحث عن تأكيد وجوده، وكيف يكون موجوداً له أثر بعد الموت، فكانت مسألة الفروسية أعمق تفسير لهذا البحث على الوجود والصراع مع الدهر وللتخلص من فكرة الموت التي اقلقته، فقد لجأ الجاهلي إلى الفروسية، وفاضت نرجسية الجاهلي على ما حولها، وحاولت أن تستعلي على المكان بالفروسية، والشجاعة والكرم (سقال، 1995). قال طرفة بن العبد:

"أَرى العَيشَ كَنزاً ناقِصاً كُلَّ لَيلَةٍ وَما تَنقُصِ الأَيّامُ وَالدَهرُ يَنفَدِ

أرى الموتَ يَعتامُ الكِـــرامَ ويصطفي عَقِيلةَ مالِ الفاحشِ المُتشدِّد

أرى العَيش كَنزاً ناقِصاً كلَّ ليلةٍ وما تَنقُصِ الأيّامُ والدّهرُ يَنفَدِ

لَعَمرُك إنّ مَوتَ ما أخطَأَ الفَتى لَكالطِّوَلِ المُرخى وثِنياهُ باليَدِ" (الديوان،2002)

شبه الشاعر الحياة بالكنز الذي ينقص كل يوم، والموت النهاية المؤلمة في وسط بيئة قاسية. إذ أثرت البيئة في الشخصية العربية، فجعلته كئيباً، وصارماً، وقاسياً، حاد المزاج وله قوانينه، وتقاليده، وعرفه، فهو كريم رغم فقره، وفارس رغم عاطفته، والوصف في شعره محدود برسوم معينة، له شخصية خشنة، يجمع بين الخشونة، والعصبية والرقة، والعاطفة، فارساً في المعارك، وعاشقاً امام محبوبته، شخصية تتسم بالطيش تارة وبالحلم، والحكمة والصبر تارة أخرى، متمسكاً بالقبيلة وما يجري عليها يجري عليه، كلهم كأنهم فرد واحد، كما نجد ان الشاعر شبه الحياة بالكنز؛ لأنها في نظره شيء ثمين لا يستطيع السيطرة عليه والتمسك به مهما حاول فهو ينفذ من يديه لا حول له ولا قوة، فالموت لا هروب منه عندما يأتي لا مفر منه (علي، 1993).

كان الطيش خلقاً شائعاً في البادية ويعد أمر طبيعي في بيئة لا يحكمها قانون، ولا حكومة، القبيلة مصدر القوة فيها إذ يعتقد كل أمرئ في نفسه السمو، والسيادة، والقوة، ويتوقع كل فرد أن تنصره قبيلته ظالماً أو مظلوماً حسب قاعدة (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فيثور معتمداً على أعوانه، لا يقف مكتوف الأيدي إذا سمع ما يزرى به، ثم يثور أيضاً لنصرة قريب، أو حليف، فالعربي سريع الانفعال، عصبي المزاج، يحب الفخر بنفسه، وعشيرته، وأي دلالة على هذا أقوى من قول عمرو بن كلثوم(الحوفي، د.ت).

قال عمرو بن كلثوم:

" لَنا الدُّنيا وَمَن أَمْسَ عَلَيهـــا وَنَبطِشُ حينَ نَبطِشُ قادِرينا

بُغَاةً ظالمِينَ وَمَـــا ظُلِمْنـــا ولكِنَّا سَنَبْدَأُ ظالمِينـــــــا"(الديوان، 1991)

يفتخر عمرو بن كلثوم بنفسه وقبيلته فهم يملكون الدنيا، وكل من عليها تحت امرهم وسيطرتهم، وعندما يتطلب الأمر لا يهابون، ولا يخافون من أحد يبطشون من دون تردد ويبغون، وإذا تطلب الوضع سيظلمون ويستولون على كل شيء لا يعصى عليهم أحد مهما كان، ومن كان، فهو العربي الأصيل، وقبيلته من أهم القبائل الموجودة في الجاهلية، التي اتسمت بالقوة والشجاعة ورفض الذل والخضوع حتى للملوك، مهما كلفهم الامر يبقى اسمهم وشجاعتهم بارزة ومتصدرة.

الشخصية الجاهلية صقلتها الحياة وترعرعت في ظروف بيئية قاسية أخذت من قساوة البيئة الخشونة، والقوة، وتحمل المصاعب، والصراع مع الحياة أثبتت وجودها رغم الصعاب. لقد حاول الجاهلي الانتصار على المكان واستعراض ذاته عن طريق الفروسية، ففاضت النرجسية على ما حوله، وحاولت أن تستعلي وتسيطر على المكان، فالجاهلي رفض الذات الخاضعة للمكان(سقال، 1995) . قال عنترة بن شداد العبسي:

"هَلاّ سَأَلتِ الخَيلَ يا اِبنَةَ مالِكٍ إن كُنتِ جاهِلَةً بِما لَم تَعلَمـــي

إذ لا أَزالُ عَلى رِحالَةِ سابِـحٍ نَهدٍ تَعاوَرُهُ الكُمـاةُ مُكَلَّـمِ

طَوراً يُجَرَّدُ لِلطِعانِ وَتـارَةً يَأوي إِلى حَصدِ القَسِيِّ عَرَمـرَمِ

يُخبِركِ مَن شَهِدَ الوَقيعَةَ أَنَّني أَغشى الوَغى وَأَعِفُّ عِندَ المَغنَمِ

وَمُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُماةُ نِزالَـهُ لا مُمعِنٍ هَرَباً وَلا مُستَسـلِـمِ

جادَت لَهُ يدايَ بِعاجِلِ طَعنَـةٍ بِمُثَقَّفٍ صَدقِ القَناةِ مُقَـوَّمِ"(الديوان،1970)

لم يتردد عنترة ولو للحظة عن الخوض في المعارك مهما كلفه الأمر، على الرغم انه من أبناء الاماء، ولكن شخصيته العربية تحتم عليه المواجهة والدفاع، وشرط ان يكون في الشطر الأول حاله حال فرسان القبيلة، وكأنما الفروسية شيء واجب على العربية وشخصيته تتسم بالوقوف في وجه كل من يحاول ان يكسر شوكته أو الاقتراب من قبليته، فهو يطلب من عبلة ان تسأل الخيالة الموجودة في المعارك عن بطولته وشجاعته وشخصية في المعارك.

وخلاصة القول، إن نفسية العربي في العصر الجاهلي نفسية مضطربة، تجتمع فيها متناقضات المكان، وعدم الاستقرار البيئي فرض على الشخصية العربية صفات لا نجدها عند غيرهم جمعوا بين الفروسية، والكرم، والقوة، والطيش، والنزاع، والصراع، والحب، والخشونة، كما نلحظ على قصائدهم انها تشبه حياتهم فالغالب على القصائد الجاهلية انها طويلة وتحتوي على أكثر من لوحة شعرية متنقلة من الطلل إلى الموضوع الأساسي ثم الخاتمة تتصف بالسرعة والتقلب وعدم الاستقرار وهذا الامر تتسم به حياتهم المتنقلة التي نست شيء اسمه استقرار.

الخاتمة:

1. الإنسان ابن بيئته كيفما تكون يكون طبعه، وصفاته، وتأثير الجغرافية عليه واضح.
2. وقع تأثير الجغرافية على جميع نواحي الحياة (السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية).
3. أثرت الجغرافية على الانتاج الفني له من خلال الألفاظ والمعاني المحدودة المُستعملة في الشعر الألفاظ التي رسمتها البيئة الصحراوية.
4. تعد البيئة من أهم العوامل المؤثرة في الانتاج الأدبيّ.
5. الطبيعة الجغرافية كان لها الدور الأهم في التأثير على الإنسان الجاهلي من خلال نمط المعيشة والملبس وشخصيته وتعامله مع الاخرين.

- المصادر والمراجع:

- امرؤ القيس، الديوان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط5، دار المعارف، القاهرة.
- جابر، أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت 279هـ)، 1932م، فتوح البلدان، مراجعة وتعليق: رضوان محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى القاهرة.
- الجبوري، د. يحي، 1986م، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ط5، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان.
- الحوفي، د. احمد محمد، الحياة العربية في الشعر الجاهلي، ط2، مكتبة نهضة مصر.
- سعيد، ادونيس علي احمد، 1979م، مقدمة للشعر العربي، ط3، دار العودة–بيروت.
- سقال، د. ديريرة، 1995م، العرب في العصر الجاهلي، د. ديريرة سقال، ط1، دار الصداقة، بيروت–لبنان.
- شبلي، د. سعد إسماعيل، 1982م، الأصول الفنية للشعر الجاهلي، ط2، مكتبة غريب.
- طرفة بن العبد، 2002م، الديوان، شرحه وقدَّم له: مهدي محمد ناصر الدين، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.
- عبيد بن الابرص، 1994م، الديوان، شرح: أشرف أحمد عدرة، ط، دار الكتاب العربي، بيروت–لبنان، 1994م.
- عطوان، د. حسن، 1970، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف–مصر.
- علميات، د. يوسف، 2004م، جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهلي نموذجاً، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان–الأردن، 2004م.
- علي، د.جواد، 1993م، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، ساعدت جامعة بغداد على نشره.
- عمرو بن كلثوم، 1991م، الديوان، جمعه محققه وشرحه: اميل بديع يعقوب، ط1، دار الكتاب العلمية، بيروت–لبنان.
- عنترة بن شداد، 1970م، الديوان، تح: محمد سعيد مولوي، ط1، المكتب الإسلامي، القاهرة–مصر.

- قناوي، عبد العظيم علي، 1949، الوصف في الشعر العربي، عبد العظيم علي قناوي، مطبعة البابي الحلبي، مصر.
- القيرواني، أبو علي الحسن (456هـ)، 1980م، العمدة في محاسن (الشعر، وأدبه، ونقده)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل الجديد للنشر والتوزيع والطباعة.
- القيسي، د. نوري حمودي، 1970، الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، ط1، دار الانشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ساعدت جامعة بغداد على نشره.
- الكفراوي، د.محمد عبد العزيز، الشعر العربي بين الجمود والتطور، دار القلم، بيروت–لبنان.
- الكوفي، أبو العباس المفضل بن محمد اللغوي، 1964م، المفضليات، تح: أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، ط6، دار المعارف، القاهرة.
- لبيد بن ربيعة، د.ت، الديوان، دار صادر، بيروت–لبنان.
- المرقش الكبير، 1998م، الديوان، ط1، دار صادر، بيروت–لبنان.

اليوسف، يوسف، 1983م، مقالات في الشع